الفسطاط

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

للأستاذ جمال الدين الشيال

يستطيع القارئ لأخبار الفتح العربي لمصر أن يلمح في يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايد ، وإن كانوا في سرائرهم يتمنون النصر للعرب لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن بابليون سبعة أشهر طوالا ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات ، وصبراً لا يعرف الملل . . .

ولما سقط هذا الحصن في أيدي العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الأسكندرية فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ؛ وبسقوط العاصمة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١م . تم فتح العرب لمصر فانتشروا في ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول ، وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

عمرو يرى أنه يتخذ لمصر عاصمة

روى ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو ابن العاص لما فتح الأسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها ، همّ أن يسكنها وقال : « مساكن قد كفيناها » . فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » ، فكتب عمر إلى عمرو : « إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بيني وبينهم فيه شتاء ولا صيفا »[1]

قد تبعث هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين : إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقي بجنود المسلمين في مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء ، حتى لا يكون هذا الماء إذا حزبهم الأمر حائلا بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مدداً لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

وقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أن ابن عبد الحكم قد أخرج عن يزيد بن حبيب أيضا أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالأسكندرية : « أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه ، فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الأسكندرية إلى الفسطاط »[1]

من هذا نرى أن رغبة عمر في أن لا يحول بين المسلمين وبينه ماء لم تكن قاصرة على مصر ، بل كان يريدها أن تتوافر في كل الأمصار التي فتحها العرب ؛ ويقول فريق آخر من المؤرخين ، ومنهم المستشرق الإنجليزي Lane Poole في كتابه The Story of Cairo إن عمر لم يكن قد رسم لنفسه بعدُ خطة ثابتة لتكوين امبراطورية إسلامية واسعة ، ولذلك كان يريد أن يكون على اتصال دائم بجيوشه التي خرجت للفتح ، وإذ كان الطريق بين بلاد العرب والاسكندرية قابلا للانقطاع في زمن الفيضان فينقطع بذلك سبيل الاتصال بينها وبين المدينة عاصمة الخلافة فقد كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يتخذ له حاضرة أخرى غير الاسكندرية .

ويبدو عند مقارنة هذين الرأيين — أحدهما بالآخر — أنه ليس للرأي الثاني من القوة والصحة قدر ما للرأي الأول ، وذلك لأن النشاط الذي أبداه عمر منذ ولي الخلافة وإرسال الجيوش تلو الجيوش إلى الشام وفارس ومصر ، كل هذا يثبت بالبرهان القاطع أن المستشرق الإنجليزي لين بول إنما قال ما قال من باب التعليل والاستنتاج العقلي فحسب .

لهذا أعرض عمرو عن الاسكندرية وولى وجهه شطر الفسطاط ؛ ولنا أن نتساءل مرة أخرى : لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة الفسطاط ؟ وهنا تتشعب الآراء

(١) انظر المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ صـ ٧٥ — ٧٦ .

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددها لاتصل بنا إلى رأى حاسم معقول ، فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم وابن دقاق والمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى وغيرهم يروون حادث التمامة على أنه السبب الأساسى لاختيار عمرو لهذا المكان ونزوله وجيشه بين ربوعه ؛ وغالبية المؤرخين الفرنجة : كبتلر ، ولين بول ، وكازانوفا وغيرهم ؛ لا يهتمون بمناقشة الأسباب التى دعت عمراً لاختيار هـذا المكان دون غيره قدر ما يهتمون بمناقشة الآراء المختلفة فى سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

وبرغم أنهم يستطردون قصة التمامة فأنهم يرجعون هذا الإسم إلى الكلمة الإغريقية Fossatum (أى المدينة) ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشام .

غير أننا نحب أن نعنى بالأمرين جميعا لما لكل من الأهمية ، ولذلك سنحاول :

أولا — مناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هـذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد إتمام الفتح العربى .

ثانيا — مناقشة الأسباب التى دعت لتسمية هـذا المكان بالفسطاط .

١ — أسباب اختيار المكان :

أما عن الأمر الأول فيقول المقريزى فى خططه : « اعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليـوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة »[1] .

من هذا يبدو أن العرب قد أنشأو مدينتهم « الفسطاط » فى الفضاء المجاور لحصن بابليون — مقر الدفاع الرومانى — ؛ وهنا نجد اختلافا آخر بين المؤرخين بشأن كلمة « بابليون » فالبعض يطلقها على الحصن نفسه والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الإسم ، وزعيم الفريق الثانى هو الدكتور بتلر ، وقد لخص رأيه فى هذه الفقرات .

١ — كانت تقوم فى زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية مثل « سرية أبى الهول » the Doxy of the Sphinx ؛ وأن بعضاً من هذه التماثيل بقى حتى زمن الخليفة الحاكم الفاطمى[1] .

٢ — وفى القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم فى هذا المكان معسكراً حربياً وأنشأوا هناك حصنا على الرتفعات الصخرية التى سماها العرب فيما بعد « الرَّصَد » .

٣ — ومن هـذا المعسكر انتشر اسم « بابليون » حتى شمل الإقليم المجاور وأصبح الإسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيداً شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك « هليوبوليس أو عين شمس » .

٤ — وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عنـد رأس الدلتا واعتزم أن يبنى حصناً قوياً كقلعة لبابليون ، ترك حصن الفرس القائم على الرصد وأنشأ قلعته على شاطىء النيـل وذلك ليضمن وجود المـاء بالقرب من حاميته ولتستطيع تلك الحامية الاتصال — بوساطة النيل — بسائر جهات القطر المصرى وسمى هـذا الحصن بحصن بابليون (أى حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر Castle of Khêmi وقد حرّف العرب هذا الإسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ — وبذلك هجر حصن الرصد الفارسى واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربى بعد ذلك بخمسة قرون ونصف قرن كانت الأخبار عن وجوده عامة لا تكاد تذكر .

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ صـ ٥٩ مطبعة النيـل بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١) يذكر ابن دقاق فى كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ صـ ٢١ — ٢٢ بولاق ١٣٠٩ هـ عند كلامه عن الأزقة التى كانت بالفسطاط « زقاق الصنم » ويقول انه سمى بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمى سرية أبى الهول وقد هدمه الأمير بلاط سنه ٧١١ هـ ؛ ويؤيد بتلر فى رأيه أيضاً ما رواه ابن الفقيه فى كتابه البلدان صـ ٦٠ عن وجود تمثال آخر من الحجر لامرأة كان بالفسطاط ؛ وما رواه المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » صـ ٢١١ ليدن سنة ١٨٧٢ إذ يقول « وفى الفسطاط عند قصر الشمع امرأة منحوتة على رأسها سفرة من حجر ... الخ هذا وقد عثر أخيراً على قطع من الحجر فى حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفى وقد نقلت إلى دار الآثار المصرية .

٦ — أن اسم بابليون الذى وجده العرب عند قدومهم يطلق على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن وحل مكانه الإسم العربى الجديد « الفسطاط » حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم « بابليون » قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب بعد أن انتزع من المدينة التى أصبحت بعد اتساعها وتموها تسمى بالفسطاط .

٧ — ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى فى مصر فى الأزمنة الحديثة وغادر الإسم الأنقاض الباقية من قصر الشمع ؛ وتضاءل حتى غدا يطلق على دير قبطى صغير يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى « دير بابليون » وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الإسم التاريخى القديم بعد أن خلفه فى تسمية المدينة « لفظ الفسطاط » وبعد أن خلفه فى تسمية الحصن لفظ « قصر الشمع »[1] .

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذى أنشئت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة مدينة كبيرة ذات شأن ؛ اتخذها البابليون مكاناً لاستقرارهم ثم اتخذها الرومان مقراً لدفاعهم يصلون به الوجهين البحرى والقبلى ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد الرأى الذى نريد أن نذهب إليه من أنه كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان : إحداهما الاسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، ولإشرافها على البحر الأبيض المتوسط ، وبابليون أو « مصر » وتعتبر العاصمة الثانية وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى ، ولوقوعها على شاطىء النيل بحيث تكون سهلة الاتصال — بوساطة هذا النهر — بكل أطراف القطر المصرى ، ولتوسطها بين النيل غربا (وهو مورد من الماء لا ينفد) وبين جبل المقطم شرقا — وهو حد طبيعى لحمايتها — ؛ ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقراً لحكمهم للأسباب التقدم ذكرها[2] فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة ، وكانت هليوبوليس (عين شمس) كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة[1] ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين[2]

ويؤيد هذا الرأى القائل بوجود هذه المدينة أيضا قول المقريزى : « وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع المتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان يعرف فى أوائل الإسلام بالحمراء »[3] ؛ وقول ابن سعيد فى كتابه المغرب : « وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى عين شمس ، وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن »[4] لأننا نعرف أن المعابد عامة — من هياكل وبيع وكنائس وأديرة ومساجد — منذ أقدم العصور إلى اليوم لا تبنى إلا فى المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان ؛ فوجود هذه الكنائس والديارات فى الأماكن التى يذكرها المقريزى يثبت إثباتا قاطعا — وجود مساكن آهلة ومبان عامرة فى هذه المدينة القديمة وقت الفتح ؛ وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج إذ يقول فى عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام « وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن » .

من هذا كله نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطاً ، بل كان اختياراً طبيعياً ؛ كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهداً جديداً فى إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته فى اتخاذ الاسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : « مساكن قد كفيناها »[5] ؛ ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الاسكندرية ، فكان لزاماً على عمرو

(١) Butler, Babilyon of Egypt, P. P. 62, 93. , 1914 .

(٢) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون فى مقدمته ص ١٩٠ — ١٩١ القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ عما « تجب مراعاته فى أوضاع المدن » .

(١) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان : (العسكر سنة ١٣٣ هـ والقطائع سنة ٢٥٦ هـ والقاهرة سنة ٣٥٨ هـ)

(٢) يعين ابن الفقيه فى كتابه (البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين فى قوله « وعين الشمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ، ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ » .

(٣) المقريزى . المرجع السابق ص ٦٠ .

(٤) نفس المرجع ص ٦٢ .

(٥) نفس المرجع ص ٧٥ — ٧٦ .

أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتذاك وهى « بابليون » أو « مصر »[1] فذهب إليها واتخذ الفضاء المجاور لها مقراً له ولجنوده .

هذه هى الأسباب الطبيعية التى دعت عمراً لاختيار هذا المكان غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتماماً مؤرخو الفرنج

١ — لم سميت المدينة بهذا الاسم :

أما عن الأمر الثانى وهو الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كذلك لا تصل بنا إلى حد حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمدون جميعاً على قصة الخيمة ، وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الكلمة الإغريقية Fosstatum أى المدينة وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام . غير أنا نرى أن قصة الخيمة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة وذلك لأنهم يقولون أن عمراً قد أوصى أحد المصريين فى رواية ؛ أو صاحب القصر فى رواية أخرى بالمحافظة على الخيمة « الفسطاط » حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها ، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط فى مكانه فنزل هو وجنده بجواره ؛ ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن عمرا ولو أنه كان قد استولى على حصن بابليون فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره ، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه قد أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذى استنفده عمرو فى فتح الاسكندرية ، وما بين بابليون والاسكندرية من مدن

ويدفعنا أيضاً إلى الشك فى صحة هذه القصة ما هو معروف مشهود عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من أنها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدى صوناً للأعشاش وحفظاً للبيض وإبقاء على الصغار .

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة المصرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها فى معسكر دائم النشاط دائب الحركة وفى خيمة القائد وهى أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين ؟

وإذا كانت هذه القصة صحيحة فى أى مكان من الخيمة تبنى اليمامة عشها ؟ والخيمة كما نعرفها جميعاً مصنوعة من قماش أملس وهى منحدرة الجوانب إذا نصبت[1] .

كل هذا يؤيد شكنا فى صحة هذه القصة وكونها أصلا للتسمية

أما الرأى الثانى فيبدو كذلك بعيداً عن الصحة وذلك لأن ابن قتيبة يروى فى كتابه غريب الحديث حديثاً للرسول نصه : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة »[2] ؛ ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين : إما أن يكون الحديث صحيحا فيبطل الرأى القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم فى حروب الشام لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وبالتالى بعد ذكره لهذا الحديث ؛ وإما أن يكون الحديث غير صحيح وبذلك يحتمل أن يكون رأى مؤرخى الفرنجة صحيحا .

غير أنا نحب أن ندلى برأى يخالف هذين الرأيين وقد يكون أقرب منهما إلى الحقيقة : وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة ، فإننا إذا رجعنا إلى قاموس المحيط وجدنا أن « الفسطاط » بالضم « مجتمع أهل الكورة » ووجدنا أن الكورة هى « الصقع أو المدينة » وبذلك تكون الفسطاط هى مجتمع أهل المدينة .

ويقول ابن قتيبة تعقيبا على الحديث السالف الذكر « والفسطاط المدينة »[3] . وينقل عنه القرزى أيضا فى الخطط

ويدفعنا أيضاً إلى الشك فى صحة هذه القصة ما هو معروف مشهود عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من أنها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدى صوناً للأعشاش وحفظاً للبيض وإبقاء على الصغار .

---

(١) زيادة فى الايضاح انظر Stanley Lane - Poole, A history of Egypt in the middle Ages, P. 3, London, 192.

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعاً ؛ انظر مثلا : القرزى . المرجع السابق ص ٧٦ ، وابن دقاق للرجع السابق ص ٢ ، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ابريل سنة ١٨٤١ ، ج ٢ ص ٣٥٤ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤ — ٦٥ ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ... الخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضع هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التى تنسب لعهد الفتح وخاصة قصة الفتاة التى كانت تقدم ضحية لفيض النيل والخطاب الذى أرسله عمر ليلقى بدلا من الفتاة .

(٢) انظر أيضاً ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن دقاق ، الانتصار ج ٤ ص ٢ .